

فصالية اللسان المبين (بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكمة)

السنة السابعة، المسلسل الجديد، العدد الثالث و العشرون، ربيع ١٣٩٥، ص ١٣٥-١١٣

توظيف التراث التاريخي في شعر يحيى السماوي*

يحيى معروف، أستاذ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه
بهنام باقري، طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه

الملخص

تعد ظاهرة توظيف الشخصيات التراثية إحدى الظواهر الفنية ذات الأثر البالغ في تشكيل الخطاب الشعري المعاصر. تحاول هذه الدراسة الكشف عن توظيف التراث التاريخي، في شعر "يحيى السماوي"، للوقوف على مقوماته، وملاحظه، ومعرفة أبعاده الدلالية، وصور التعامل معه. وقد تبين من خلال الدراسة؛ أن الشاعر يحاول امتصاص الدور الذي قامت به هذه الشخصيات في الماضي وإضفاءه على واقع المعيشة، ليعطي بعداً دلاليّاً على الواقع السياسي والوضع الراهن والواقع المرير في العراق. وهذا التوظيف، قد عبّر عن موقف الشاعر، وما يعانیه من الحزن العميق لبعده عن وطنه الجريح وما يمر به من الآلام والمآسي. ورسم السماوي من خلال توظيف هذه الشخصيات التراثية؛ صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي في زمن سيطرة سفاكين "حزب البعث" على العراق، وبعده "الاحتلال الأمريكي" وجرائمه البشعة في العراق. والشاعر يعمد إلى خلق روح المقاومة في النفوس، وذلك بدعوته إلى الصمود أمام ظلم الديكتاتورية الصدامية؛ والاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة. ويبدو أن السماوي قد أحسن توظيف هذه الشخصيات في سياق التعبير عن همومه الذاتية وتصوير خواجه النفسية في أجواء غنائية مفعمة بالحزن والألم والتشرد والحنين إلى وطنه العراق.

الكلمات الدلالية: يحيى السماوي، التراث التاريخي، الاحتلال، العراق.

* - تاريخ الوصول: ٩٣/١٢/٠٢ تاريخ القبول: ٩٤/٠٦/٠٨

عنوان بريد الكاتب الإلكتروني: y.marof@yahoo.com

١ - المقدمة

يعدّ الموروث من المصادر الأساسية التي عكف عليها الشعراء في العصر الحديث، واستمدوا منها شخصيات تراثية عبروا من خلالها، عن جوانب من تجاربهم الخاصة. وقد تنوعت مصادر التراث التي استفاد منها الشعراء للتعبير عما يختلج في نفوسهم، بعد أن أدركوا أهمية إدخال التراث في بناء القصيدة الحديثة. منها: مصادر دينية، ومصادر تاريخية، ومصادر أسطورية، ومصادر أدبية، وكان لهذه المصادر أثر كبير في تعميق تجربة الشاعر الشعورية. وتعدّ الشخصيات التاريخية من أهم عناصر ذلك التراث الذي اتجه إليه الشعراء العرب في العصر الحديث، وسعوا إلى استدعائه في تجاربهم الشعرية. إنّ التراث التاريخي مصدر غني من مصادر التجربة الشعرية لدى "السماوي"، فقد اتكأ الشاعر على جملة من الرموز التراثية، وحاول من خلالها أن يقدم لنا صورة لمأساة العراق وينقل تعبيره عن رؤية هذه الجراح والدمار، والآلام الذي يعاني منه الشاعر إزاء ما تمرّ بالعراق. ويقوم هذا البحث على دراسة توظيف التراث التاريخي في شعر يحيى السماوي، وصور التعامل معه، واستقصاء أبعاده. وشاعرنا قد سعى إلى تضمين شعره تلك الشخصيات، لأن توظيف تلك الشخصيات بالنسبة للشاعر ليس مجرد ذكر للشخصية؛ بل المعرفة الواعية بملامح تلك الشخصيات وأبعادها الدلالية، تعدّ إحدى الوسائل التعبيرية التي يلجأ إليها الشاعر لإثراء تجربته الشعرية، والتعبير عما يحس من معاناة شعبه والقضايا التي يعيشها الشاعر ووطنه الجريح تحت سيطرة ديكتاتورية "حزب البعث"، وبعده الاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة، وجرائمه البشعة، ونشأت الفوضى والدمار والإرهاب في ظل هذه الحرية الزائفة. من هنا اختار السماوي من الشخصيات التاريخية، ما وافق طبيعة قضايا وطنه الجريح، والهجوم التي أراد نقلها إلى المتلقي. وأراد الشاعر من خلال توظيف هذه الشخصيات، كشف الواقع المرير، والوضع الراهن الذي يعيشه العراق، ليصور من خلالها عراق التي تعاني من الجوع والفقر والجور والدمار والانكسار؛ سواء في ظل النظام الديكتاتوري الصدامي، أو تحت رحى الاحتلال الأمريكي. لذلك، فإنّ توظيف الشخصيات التراثية غدا ظاهرةً تسترعي الانتباه، وتستدعي البحث والدراسة. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث، وجدوى تسليط الضوء على هذه التجربة الشعرية، والوقوف على ملامحها وتدقيق معانيها، والكشف عن أبعادها الدلالية وملاحمها التي يتميز شاعرنا في توظيف هذه الشخصيات التراثية في شعره. اعتمدنا في دراستنا هذه، على المنهج الوصفي التحليلي الذي يعنى بدراسة توظيف الشخصيات التراثية في شعر يحيى السماوي؛ للوقوف على مقوماتها وتحليلاتها، واستنباط أبعادها الدلالية، مع معرفة فاعليتها لإثراء تجربة الشاعر الشعرية. وتتكون الدراسة من مقدمة، ثم البحث عن حياة الشاعر، ثم الحديث عن التراث وتوظيفه في الشعر العربي المعاصر، ثم تناولنا بالتحليل لأهم الشخصيات التاريخية التي وظفها الشاعر في شعره.

والأسئلة التي تطرح في هذه المقالة، هي:

١- كيف عبّر السماوي من خلال توظيف هذه الشخصيات التراثية، عن همومه وآلامه ومآسي وطنه الجريح؟

٢- كيف يجسد الشاعر من خلال هذا التوظيف، التفاعل بين الماضي والحاضر؟

أما المفروضات المقترحة التي نحاول أن نثبتها أثناء دراستنا هي:

١- يختار السماوي من الشخصيات التاريخية ما يعتقد أنها توافق طبيعة الأفكار والمفاهيم التي يحملها ويريد إيصالها للمتلقي.

٢- أن التراث وتوظيفه في شعر يحيى السماوي وسيلة تساهم في إغناء تجربته الشعرية.

٣- هي محاولة موفقة للتعبير عن أحاسيسه وآلامه إزاء ما تمر به العراق الجريح، من الظلم والدمار والمآسي، وحث الشعب العراقي على الصمود والمقاومة.

إنّ شعر يحيى السماوي قد حظي بدراسات عديدة، منها: كتاب «الشعر العراقي في المنفى "السماوي" نموذجاً» للدكتورة فاطمة القرني، وكتاب «العشق والإغتراب في شعر يحيى السماوي "ليلك لا كثيرهن نموذجاً"» للدكتور "جاهين بدوي"، وهناك كتابان لـ"عصام شريح"، وهما: «آفاق الشعرية؛ دراسة في شعر يحيى السماوي» و«موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيى السماوي» الصادر عن دار الينابيع في دمشق. وكذلك؛ كتاب «تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي» لماجد الغرابي، من مؤسسة المثقف العربي، في المجلدين من أجل تخليد الذكرى، وما كتب حول إنجازاته في هذه المناسبة. ويشتمل الكتاب على عدة أبواب: دراسات نقدية، مقالات، حوار مفتوح مع الشاعر حول آرائه وتجربته الشعرية وحياته. كذلك أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ «الموتيف في شعر يحيى السماوي» في جامعة الفردوسي بمحافظة مشهد. ورسالة أخرى على مستوى الماجستير للباحث "بهنام باقري" وبإشراف "يحيى معروف" تحت عنوان: «دراسة أسلوبية في شعر يحيى السماوي ديوان "نقوش على جذع نخلة نموذجاً» في جامعة رازي كرمانشاه. أما المقالات التي تناولت شعر يحيى السماوي متعددة، منها: «الوطن منشوداً وموجوداً في شعر يحيى السماوي» لـ "محسن العوني"، و«قراءة في قصيدة يحيى السماوي؛ يا صابراً عقدين إلا بضعة» لـ "عبد الجواد خفاجي"، وهذه المقالات طبعت في كتاب "تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي". كذلك مقالة «التناص القرآني في شعر يحيى السماوي»، لـ "عباس طالب زاده ورسول بلاوي". ومقالة «عناصر الموسيقى في ديوان نقوش على جذع نخلة ليحيى السماوي» لـ "يحيى معروف وبهنام باقري" المنشورة في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها. أما بالنسبة لدراستنا - على حد علمنا - لم يبق أحد بدراسة "توظيف التراث التاريخي في شعر يحيى السماوي"، كلّ هذه الدراسات لم يتطرق أصحابها إلى موضوع "توظيف التراث التاريخي في شعر يحيى السماوي"، وأنّ جميعها ركز على معالجة موضوع الوطن بشكل عام، أو عالج شعر شاعر لغةً وأسلوباً. كل ما يوجد بالنسبة إليها، هي في كتاب "العشق والإغتراب في شعر يحيى السماوي"، حيث إن الكاتب في أثناء دراسته النقدية ذكر بعض الشواهد من شعر السماوي، حول استدعاء "سندباد وشمشون" في شعره. إذن، على الرغم من تنوع هذه الدراسات إلا أن هذه الدراسة، قُدمت في شكل مختلف عن غيرها من الدراسات في المجال نفسه، وهو أمر مردود إلى طبيعة المادة التي قامت عليها. فهي الدراسة الأولى التي تختص بدراسة "توظيف التراث التاريخي في شعر يحيى السماوي"، فجاءت لتسلط الضوء على جانب لم يعن به الدارسون.

٢- التعريف بالشاعر يحيى السماوي:

هو «يحيى عباس عبود السماوي، وُلد بمدينة السماوة بالعراق في السادس عشر من مارس ١٩٤٩م، ثم تخرّج في كلية الآداب الجامعة المستنصرية عام ١٩٧٤م، ثم عمل بالتدريس والصحافة والإعلام، استهدف بالملاحقة والحصار من قبل البعثيين في النظام الصّدامي حتى فرّ إلى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٩١، واستقرّ بها في جدّة حتى سنة ١٩٩٧م، يعمل بالتدريس والصحافة، ثم انتقل مهاجراً إلى إستراليا؛ وبها يقيم حتى كتابة هذه السطور» (بدوي، ٢٠١٠: ١١). وهو عضو اتحاد الأدباء العراقيين، عضو اتحاد الكتاب العرب، وعضو اتحاد الأدباء الأستراليين. ونشر أكثر من مقال سياسي في الصحافة العربية حول جرائم النظام (البعث). وترجمت العديد من قصائده إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية.

أصدر السماوي حتى الآن أكثر من عشرين ديواناً، يكفينا لنقرأ عناوين دواوينه، لنعرف تفاصيل المحنة والجراح والمآسي. فهي توحى بمضامينها عمق هيامه وحنينه بالوطن. وشكل علاقة الشاعر بالوطن جوهر دواوينه من حيث مضامينها، فقد التصق بالوطن إلى حدّ الانصهار التام، وانعكس ذلك في شعره بشكل مباشر. كما يرى "عصام شرتح"؛ «أننا عندما نخوض في تجربة شعريّة متميزة؛ كتجربة الشاعر يحيى السماوي فإننا نخوض في رحاب عوالم تصويريّة مدهشة وأفاق رحبة؛ تترك القارئ يسبح في فضاء جماليّة شعريّة عالية؛ كجمالية اللغة؛ والرمز، والإيقاع، والمشهد الشعري عامة؛ ولعلّ أبرز ما يشدُّ القراء إلى أشعار السماوي مقدرتها التصويريّة العالية وحرصها على تكتيف المواقف الشعوريّة، وبلورتها بألق جماليّ شاعري عميق» (شرتح، ٢٠١١ الف: ٨). إذن؛ هو شاعر كبير في بناء صورته الشعريّة، وتحفل انجازاته بقيم الإنسانية النبيلة، ووظف شعره لخدمة الإنسان والمسيرة الإنسانية وخاصة تفاعله الكبير مع قضية وطنه الجريح الذي تعرض للطواغيت - حزب البعث - وللاحتلال الأمريكي، ولأشرس هجمات إرهابية في التاريخ نتيجة هذا الاحتلال وديمقراطيته المزعومة.

٣- توظيف التراث التاريخي في الشعر العربي الحديث

يعدّ مصطلح التراث من أهم المصطلحات ذيوياً في حقل الدراسات النقدية المعاصرة. ولا يخفى على دارس للأدب أو متذوقه، أنّ التواصل بالتراث سواء أكان دينياً أم تاريخياً يجعل للنص قيمة خاصة؛ وعمقاً أقوى يثير القارئ، ويجعله أكثر قرباً من النص، ويدل على ثقافة الشاعر، ويخلق الصلة بين القارئ والنص. والتراث كما عرفه "جورج عبد النور" أنه «ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد، وعادات، وتجارب، وخبرات، وفنون، وعلوم، في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي، والإنساني، والسياسي، والتاريخي، والخلقي، ويوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه» (عبد النور، ١٩٧٩: ٦٣). ويرى نزار قباني؛ «هو الرحم الذي تربينا في داخله جميعاً وتشكلت فيه ملامحنا الثقافية الأولى، والذين يقولون لا تراث لهم، كالذين يقولون لا أمّ لهم» (قباني، ١٩٨١: ١٦٦). إنّ الشعر الحديث عرف في العقود الأخيرة رغبة عميقة في توظيف التراث؛ «والواقع أن استلهم التراث قد أصبح ظاهرة بارزة، وسمّة شائعة في الشعر العربي الحديث، إذ انطلق الشعراء العرب في استدعاء هذا التراث من إيمانهم بقيمة التراث وما له من دور عظيم في اتصال الحاضر بالماضي، فقدموا العديد من التجارب الشعريّة المستلهمة من التراث على اختلافه، واتسمت هذه التجارب بارتباطها بالقيم الروحية والفكرية،

واكتسبت أصالة فنية من خلال البعد التاريخي والحضاري، وتخطت حاجز الزمن، فامتزجت في ماضيها، وصار الماضي والحاضر وحدة واحدة» (حمدان، ٢٠٠٧: ٩٤). ولاشك أن للموروث أهمية في الأدب العربي الحديث، إذ يُعدّ التراث منبعاً من منابع الإلهام الشعري. إنّ توظيف التراث في العمل الشعري يُضفي عليه «عراقاً وأصالة»، ويمثّل نوعاً من امتداد الماضي في الحاضر، وتغلُّل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصب المعبأ. كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعاً من الشمول والكلية؛ إذ يجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتعاقب في إطارها الماضي مع الحاضر» (عشري زايد، ٢٠٠٣: ١٢٨). إذن، للتراث أهمية بالغة للشاعر العربي المعاصر، فهو يستمد منه الرؤية والهوية، لإغناء تجربته الشعرية. وأدرك الشعراء أهمية توظيف الشخصيات التاريخية والدور الذي تلعبه كل شخصية في نصوصهم الشعرية، وعند تتبعنا محتوى شعر "يحيى السماوي" وجدنا الشاعر وطنياً بارزاً يدافع عن وطنه بشعره، ويعمد الشاعر إلى توظيف الشخصيات التاريخية، لتكون تعبيراً عن مواقف يريدها، أو ليحكم العصر ونقائضه من خلالها، وهو في ذلك يختار الشخصيات التي تتلاءم مضمون تجربته، وتكون استلهاماته التاريخية صورة رامية لقضايا الشعب لإعطاء الخطاب الشعري قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي، بما يتناسب مع رؤيته الشعرية لضرورة الجهاد للدفاع عن العزة والكرامة.

٤- التراث التاريخي في شعر يحيى السماوي

١-٤-٤ - معتمصم

استلهم الشاعر موقف "معتمصم" (١) وصرخة المرأة المظلومة التي امتهنت كرامتها على يد رجل من عمورية، ليستقطه على الواقع العربي والعراقي الحاضر، من فقدان النخوة والغيرة. ومن هنا كانت شخصية "معتمصم" ومعركة العمورية من الوسائل التي وظفها الشاعر لمواجهة هذه الصفات، والقيم، والتعبير عن رفضها. وذلك قوله:

كيف / يقوم بيننا (مُعْتَصِم) / يذود عن كرامة (الحُرّة) / حين يَسْتَبِيحُ حُدُودَها المَنبُودُ والأفكُ والهَجِينُ / إن كانت (الأُمَّة) قد أُوْكَلَّت (العَصْمَةَ) للغريب / فهو الأمرُ الناهي.. ويُّ أمرها.. / وصاحبُ القرار. وقتَ الفَصْلِ. بين الظنِّ واليقين؟ (السماوي، ٢٠٠٥: ١١٤).

أصبحت هذه الحادثة رمزا للكرامة والعزة عبر التاريخ الإسلامي؛ واليوم غدا الأمر مختلفاً، فلم تعد العزة والغيرة قائمة، ولم يتحرك العرب لنجدة المظلومين. وهذه الصورة التي رسمها السماوي في هذا المقطع، تمثل صورة الجبن، والمؤامرة، والتخاذل، وحماية العدو، وتبين بشكل مؤلم، وفاضح عن رداءة الواقع المتخاذل العربي. سيطر الواقع الاجتماعي والفكري والسياسي الذي يمر على العراق على شعر السماوي، فيوحي من خلال هذه الصورة إلى المعاناة التي يعيشها بلده من ظلم ودمار وقسوة إثر احتلال الأمريكان ونشأت الفوضى والدمار وتصارع القوى والأحزاب لأجل الوصول إلى غاياتهم وأمياهم التوسعية في العراق. فهذا الاستحضار، يجعلنا نتذكر الماضي، يوم كانت العزة والغيرة تحرك المشاعر، واليوم غدا الحال غير ذلك؛ فجاء التوظيف مفارقاً بين عصرين؛ عصر العزة والكرامة في ماضي ذهبي، وعصر المهانة والتخاذل في الحاضر، فهم بدلاً من أن يمتسكوا بجبل الله صاروا يعتصمون بجبل الاستبداد، والمحتلين والغزاة. فأراد السماوي من خلال هذا التوظيف، التعبير عن العار الواقع على الوطن

وتحريك مشاعر الأمة نحوه. إذن، فمعتصم يمثل صورة الماضي النموذجي الذي يحلم بعودته، والواقع المتخاذل يمثل الصورة المقابلة التي يحاول نقدها، والسخرية منها؛ وعلى قدر تقابل هاتين الصورتين يبرز التناقض، والمفارقة بين الماضي والحاضر.

كذلك قوله:

كفي الصُراخُ / فليسَ في هذا الزمانِ المسخ "معتصم" يزود عن الحرائر والتراب / وعن عفافِ التينِ والزيتونِ /
فالكرسيُّ أخصى في فوارسنا الرجولة. (السماوي، ٢٠٠٨: ٩٠).

تضاعف الحزن لدى الشاعر؛ وهو يدرك أنّ الخراب والدمار قد عمّ وطنه ولم يبق له سوى الدمار والجراح. وهو لمس بنفسه كم تحول وطنه العزيز إلى معتقل تداس فيه الكرامة والعزة. ففي هذا المقطع، يصور لنا الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق من التخاذل والاستسلام، فيتخذ الشاعر شخصية "معتصم" ليشير إلى الكرامة والعزة في الماضي وغاية التخاذل والسقوط في الحاضر. فقد أشار السماوي من خلال هذا التوظيف إلى البون الشاسع بين الماضي والحاضر ليصور من خلال هذه الصورة، المواقف الخائفة من ذل واستسلام لأؤلئك الذين خانوا مصالح الشعب العراقي لأجل وصول إلى غاياتهم في السلطة. من هنا كانت الفكرة الرئيسية لهذا الاستدعاء، تقوم على رسم الشاعر صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي وتبعاتها، لما حل بهم من القتل، والجراح، والآلام. وهو بذلك يريد تصوير الاحتلال الأمريكي وعملائه وأثرهما المدمر على حياة الشعب العراقي بكافة نواحيها. ولكنه هنا لا يستدعي شخصية معتصم ليحدثنا عن سيرتها، وصفاتها، وأبعادها التاريخية بقدر ما يستدعيها وسيلة تعبيرية في أبعادها المشوقة يسهم بها في كشف الموقف العراقي الراهن بما فيه من وهن، واستسلام. وقد وفق الشاعر بتوظيفه شخصية معتصم بهذه الصورة ومزجها في جو النص، جو: المهانة، الذل، الاستسلام والتخلي عن الجهاد؛ ليصور واقع الشعب المرير في الاعتداء على كرامته، وانتهاك مقدساته، وسفك دمائه، وسلب عزته.

٢-٤- صلاح الدين

ويستدعي الشاعر شخصية "صلاح الدين" التي تميزت بمكانة كبيرة في مجال الأدب والدراسات الحديثة، حيث شكلت عنده حالة الشعب، وما يعانيه اليوم من جراح وآلام، وتجاهل، وتخاذل، دفعته لاستدعاء صلاح الدين، موظفاً الشخصية وسيلة للحث وأداة للمعاتبه حيث قال متسائلاً:

كيف يقومُ في جموعنا (صلاحُ الدين) / ونحن لا (صلاح) في نفوسنا / مُستَبْدِلين لَدَّةَ زائِلَةٍ ب (الدِّين)؟ / كيف يَضُوعُ صُبْحُنا مَسْرَةً / وليلنا وداداً / إن كان فينا نَقْرٌ / يرى الخرابَ نعمةً / وَدَبَّحَ إنسانٍ نضالاً / واختطفَ امرأةً شَهامةً / وَنَسَفَ بَيْتَ آمِنٍ جِهَاداً؟ (السماوي، ٢٠٠٥: ١١٤-١١٥).

إن شخصية "صلاح الدين"، كشخصية بطولية احتلت مكانتها في مخزون الذاكرة العربية - بغض النظر عن أعماله السلبية واليجابية - فاستثمرها الشعراء على اختلاف رؤاهم. هنا؛ يستدعي الشاعر شخصية صلاح الدين لكشف الموقف المؤلم الراهن بما فيه من وهن، واستسلام، ومآسٍ، ونفاق بين الشعب، وجعلها متكأً يعلق عليه الشاعر شكواه من الحال المريرة التي يعانيها شعبه. والشاعر بهذا التوظيف يولد إحساساً أليماً في نفس المتلقي، وهذا

التوظيف يساعد على تعميق الإحساس لكشف عمق المأساة والتجاني عن الدين والاستسلام لحياة الذل وقتل الشقيق باسم الجهاد. إذن؛ ففي هذا الحال المؤلم كيف لا تسقط كرامة البلد، وكيف تكون قادرة على إنجاب صلاح الدين الجديد القادر على استعادة الكرامة والعزة. والسماعي في هذا تناول رسم صورة سوداوية مسكونة بالألم والحزن والتفجع على العراق، وحالها الراهن الذي برزت فيه مثقلة بالتمزق والضيق تحت الإحتلال، مازجاً هذه الصورة القائمة، والاحساس المتألم باحساس آخر دفع إليه الإعجاب بتاريخ العراق والإشادة بماضيها وحضارتها من خلال صورة صلاح الدين وتعميق الإحساس بالمفارقة بين واقعين متضادين: واقع مشرف مضى، وواقع محبط منكسر. وهنا ارتبط استدعاء صلاح الدين باستنهاض الواقع، وإذكاء الحمية واستثارة وجدان الشعب نحو التحرك الفاعل لتعود إلى مجده، وعزه، وتاريخه المشرق.

٣-٤ - أبرهة وسجيل أبيبيل

واستدعى السماوي شخصيات تاريخية ذات بعد سلمي، وكذلك حوادث تاريخية لها دلالات من شأنها الكشف عن واقع التجربة التي عاشها الشاعر، ومن هذه الشخصيات "أبرهة الحبشة"، ليسقطها على واقع العراق من سيطرة وظلم "حزب البعث" عليها والاحتلال الأمريكي، وقوله:

يا آل ياسر والشهادة حلمنا	ما دام "أبرهة" بدجلة يمحُزُّ
يا آل ياسر والفتى بعقيدٍ	يُجلى فيملك أصغرته ويُوسرُ
تتكسّر الأصفاد رغم صلايةٍ	وعبيرُ أزهارِ التقى لا يُكسّرُ
يا آل ياسر والعقيدة طينها	يُجلى على نارِ الجهادِ ويُمحُزُّ

(السماوي، ١٩٩٣ الف: ٣٦).

إنّ هذا الاستدعاء رسالة تعبيرية للشاعر جاء بشكل غير معمم، وبطريقة إشارية خاطفة لكنها حملت رؤيته الشعرية؛ إنّ العراق كانت تسيطر عليها السلطة الحاكمة، (حزب البعث) وتمارس العنف والاضطهاد بحق شعبها، بكل ما لديها من قوة ووحشية في محاولة القضاء على أبنائها، فالسماوي متألم على واقع هذه الأمة. فاختياره لأبرهة (صدام)، يوحي بمدى ما كان يمتلك هذه الطاغية من قوة وعتاد وآلة مدمرة، وعدم تكافؤ بين الطرفين، فنشعر بكل معاني الرهبة والبشاعة لهذا الغاصب المتحجر. لكن؛ مهما استبد الحاكم وظلم، فإن الشاعر يظل مسكوناً بالوعد والأمل ، فالخلاص آت لا ريب فيه. إذن، وعي الشاعر لا يجعله يقف عند مرحلة الألم والحزن ويستسلم لها، بل ينطلق منها، داعياً الشعب إلى مزيد من التضحيات، من أجل تحرير الوطن من تلك القوى الحاكمة الظالمة.

وكذلك يستدعي الشاعر هذه الحادثة التاريخية - هجوم أبرهة الحبشة ومحاوله هدم الكعبة - ذات البعد الديني، من خلال ذكر "سجيل أبيبيل"، و في ذلك قوله:

ولنا من النخل: / شرفُ الموتِ وقوفاً دون انحناء / فخذوا بنصحي: / عيونكم لا تقوى / على عواصف صحارانا / أفيالكم الفولاذية / لن تتحمل "سجّيلِ أبابيلنا" / دارنا أصغرُ من أن تقسّم / وأكبرُ من أن تبتلع. (السماوي، ٢٠٠٩: ٨٦).

يستدعي الشاعر في هذا المقطع، شخصية ذات بعد سلمي وهي "أبرهة الحبشة"، باستخدام "سجّيلِ أبابيل"، وإذا كان أبرهة الحبشة هو عنوان الظلم والشراسة والوحشية، في ذلك الزمان، فأمریکا هي "أبرهة العصر"، الذي يحتاج العالم الإسلامي. ويحاول الشاعر امتصاص الدور الذي قامت به هذه الشخصية في الماضي وإضفاءه على واقع المعاش، تمثل فيما يقوم به أبرهة العصر (أمريكا)، من تدمير وهدم واحتلال العراق. ومهما تمتلك جيوش "أبرهة العصر" العتاد والآلة المدمرة والأفيال الفولاذية (الدبابات)، إن مهمة الشاعر واضحة في بعث روح المقاومة وعدم الاستسلام؛ فيرسل السماوي رسالته إلى أهله ووطنه ويحثهم على الجهاد ومواجهة العدو الغاشم حتى ينالوا حريتهم وكرامتهم. فقد غدا هذا الاستدعاء صورة من صور الإصرار على المواجهة والعزيمة على المقاومة تدفع النفوس إلى مواصلة الجهاد، وتزِيل عنها اليأس، والشعور بالهزيمة، والإحباط، والتعاس عن مقارعة المحتل المعتدي؛ مستمراً هذا العرض التاريخي في إحياء الأمل، وبعثه في النفوس، والتأكيد على الغد المشرق الذي سيعود فيه للعراق مجدها العظيم.

٤-٤-٤ - أبو رُغال

إنّ "أبا رغال"، «رجل من سقيف، أرسلوه مع أبرهه يده على بيت الحرام لهدمه، فلما وصل مع أبرهه إلى موضع يسمى "المغس"، مات أبو رغال. فرجمت قبره العرب» (هارون، ١٩٨٥: ٢٦). وينعت كل خائن عربي بأبي رغال، هذا رمز خيانة عربي. والشاعر بالرجوع إلى التاريخ يستعير ملامح هذه الشخصية لتعميق معنى الذل والهوان، وتعبير عن الدهشة؛ مما يحدث في الواقع الراهن العراق من التخاذل والخنوع والخيانة، وحماية العدو، ويحث الشاعر الشعب لاستتصال جذور هذه الخونة من الوطن. وذلك قوله:

البندقية وحدها الحُكْمُ الميْزَةُ / بينَ مشكَاةِ اليقينِ / وبين ديجور الضلالِ.. / البندقيةُ . لا اليراعُ . الناطقُ الرسميُّ / باسمِ الدارِ تَطْحَنُهَا خيولُ الإحتلالِ / باسمِ الغدِ المأمولِ / باسمِ طفولةٍ سُفِّحَتْ / باسمِ عُرَاةِ كهفِ الإعتقالِ / باسمِ الفراتِ المستباحِ / وباسمِ نخلٍ مُثْكَلٍ بالسَّعْفِ والعرجونِ / حتى بات مذبوحَ الظلالِ / فاكسنٌ بمجرفةِ الجهادِ الوَحْلِ / واستأصِلُ جذورَ (أبي رُغال) / (لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى) / حتى يُزَالِ الإحتلالُ / حانت صلاةُ الدَّوْدِ.. / حيَّ على النزالِ.. على النزالِ / على النزالِ. (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٨ - ١٢٩).

إنّ السماوي حمل هموم وطنه واستخدم الشعر للدفاع عن وطنه وشعبه، وهو يريد من أبناء الوطن مواجهة المحتل الغاشم، لأنّ العراق كانت تزرع تحت نير الاحتلال وقد نشر الرعب والجراح والدمار في أنحاء البلاد. وفي ظل الاحتلال لا كرامة لحي وبالتالي لا كرامة لميت، الأحياء هم الذين يكرمون كرامتهم بوقوفهم وصمودهم في وجه المحتل. فيرى أنه يجب التمسك بفريضة الجهاد لدحر المحتلين عن الوطن لتبقى العراق عزيزة على أهلها؛ فيدعوهم بالجهاد وطردها المحتل وعملائه. ويوجه الشاعر سهام غضبه لأولئك الذين خانوا مصالح الشعب العراقي ولاذوا بالمحتل. فلجأ

الشاعر إلى التاريخ، ويستمد من أحداثه وشخصه رموزاً، لها دلالتها في الواقع الراهن. فيستدعي الشاعر شخصية تاريخية ذات مدلول سلمي، وهذه الشخصية هي "أبو رغال"، وقد اشتهر أبو رغال بقصته المعروفة كدليل لأبرهة الحبشة عندما قصد الكعبة هادماً، وهنا يختار الشاعر ما يناسب تجربته من ملامح هذه الشخصية، وهو ملمح الخيانة، للتعبير عن الواقع المؤلم الراهن في العراق، فتشير هذه الشخصية بدلالة واضحة على ما يتسم به الوضع العراقي الراهن من الاقتتال الداخلي، وهي بدورها تسهم في جلاء العالم الداخلي للشاعر، وتكشف موقفه وما يخترنه من أسى وألم، ورفض هذه الأحداث التي تمر بالعراق. فهو يدعو بالجهاد والقضاء على العملاء والخائنين والمختلين واستئصال جذورهم حتى ينالوا كرامتهم وعزتهم وحریتهم منهم. كما في المقطع ذاته؛ يوظف البيت المشهور لشاعر الجاهلي؛ "زهير بن أبي سلمى":

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدُمُّ»

بما يتناسب مع رؤيته الشعرية لضرورة الجهاد للدفاع عن العزة والكرامة. ويقول الناقد السوري "عصام شرتح": «إنَّ الشاعر وظف هذا القول في نصه بما يتواءم ورؤيته الشعرية ومنظوره للجهاد في الدفاع عن الأرض والشرف؛ فهو يريد من أبناء الثورة العراقية أن يستمروا في نضالهم وجهادهم حتى ينالوا حریتهم من الغزاة الأمريكان الطامعين» (شرتح، ٢٠١١ ب: ١٤٨). والسماوي في هذا الإستدعاء، يريد استحضار الذهن لتلك الشخصية والدور التي لعبتها، والقضايا التي كانت تتعامل معها بعد مراجعة ذهنية يقوم بها القارئ ليصل إلى القضية التي يريد طرحها السماوي؛ وقد ربط الشاعر في هذا الجانب بين التخاذل، والخيانات العربية التي أسهمت في تعميق هذا الجراح والآلام والتشريد، وحاول من خلال استدعاء هذه الشخصية وصل الماضي بالحاضر للتعبير عن إدانته الواقع العراقي - العربي - المترددي من الذل والهوان والخيانة.

٥-٤- هولاكو

من الظواهر اللافتة في استخدامات الشاعر توظيفه لمعطيات التاريخ؛ إذ يقوم السماوي باستلهاام الحدث التاريخي والشخصيات التاريخية، بغية توظيفهما في نصه، بما تحمله من دلالات وإشارات في واقع الراهن، ومن أكثر هذه الشخصيات، تواتراً في شعره، هي شخصية "هولاكو" التتري، ويرمز به إلى الاحتلال، الطغاة، والاستعمار والسلطة السياسية. وقوله:

يلزمني قلب "هولاكو" وضمير "تيمورلنك" / لأعرفَ حجم لذة "المرح الأرميكي" / بعد اغتصابه زهرة الله "عبير قاسم حمزة"^(٢) / قبل رشِّ صدرها بالرصاص / وإيقاد النار في جسدها / ليُذيب الجليد المتجمِّد في عروقه / أياً كانت مآسي الغد... / أياً كان غضب الأعاصير.. / البراكين.. / الطوفانات.. / الزلازل.. / والأوبئة.. / فأجيال الغد لا بد أن تكون أحسن حالاً / مادام أن الغد / لن يشهد ولادة وحشٍ جديد / اسمه: "جورج بوش الحفيد"!! (السماوي، ٢٠٠٩: ٨١).

"هولاكو" هو حفيد "جنكيزخان" الذي تغلغت شهوة القتل في دمه، وقد بنى هولاكو مجده كجده على جبال من الجماجم والرؤوس المقطوعة، كما فعل في بغداد التي انقض عليها في عهد "المستعصم بالله" عام ١٢٥٨ م. فدمرها،

وارتكب فيها الجرائم البشعة من القتل والدمار وتحتك الأعراض. والسماوي من خلال هذا الاستحضار، أراد أن يوقع المتلقي بأن صورة العدو عبر التاريخ واحدة لا تتغير على الرغم من مرحلة انعطاف التاريخي المتصلة بعملية السلام والديمقراطية؛ فقد سقطت بغداد في أيدي "التتار" وها هي اليوم تسقط في أيدي أميركان وحلفائهم، وإن شخصية "هولاكو" و "تيمور لنك"، تشبهان إلى حد كبير الشخصيات المجرمة (جورج بوش) الموجودة في هذا العصر، والتي فعل نفس فعلها من غزو للعراق وارتكاب الجرائم الشنيعة فيها من القتل والجراح والدمار وتحتك الأعراض. لذلك نجد الشاعر في آياته ربط الماضي بالحاضر ربطاً قوياً؛ ويتشبت بروح المقاومة؛ لتغدو هذه النزعة في رؤية الشاعر للوطن مكوناً جوهرياً في وعيه الواقعي، وسبيلاً محققاً للغاية التي يريدها من استعانتته بتاريخ، متقين أن لا مجال للنسيان، لأن الجريمة تتكرر في كل يوم بلون و طعم جديدين.

كذلك قوله:

الكلُّ أعمى في النهار / مادام أنَّ الصبحَ كهفٌ موصدٌ / والشمسُ غادرتَ المدينةَ / ربما / نخجلاً من المتناطحينَ
على فتاتٍ نظيحةٍ / والسَّحتِ من زُقومٍ "دولاز" / والواقفينَ / على رصيفِ الإنتظارِ / أملاً بـ "سجيل" تدكُّ به
السَّماءُ / خيولٌ "هولاكو الجديد" وموقدي نارِ الجحيمِ الطائفيِّ / وسارقي قوتِ الجياعِ / وبائعي في السَّرِّ بستان
المدينةِ لـ "التتار". (السماوي، ٢٠٠٨: ١٧٥ - ١٧٦).

إنَّ العراق وهي تعيش حالة التردّي، واليوم لم تجد من يمد لها يداً؛ لأنها افتقدت الحقائق، وامتألت أحوالها بالزيف والخيانة. في هذا المقطع نجد أن الشاعر استخدم كلمة "التتار"، وفيما يكتبه التاريخ، نعلم بأن التتار قد كانوا أبشع المجرمين فقد دخلوا بغداد واسفكوا الدماء ودمروا معالمها. وإذا كان "هولاكو" دمر، وشرد، وقتل، وطغى، فغزاة العصر، (الأمريكان)، لا يختلفون في ملاحظتهم عنه. والسماوي يربط بين الأحداث المتوالية التي تعرض لها العراق، عبر التاريخ من قبل الغزاة. وهذه الأحداث إنما تأخذ طابعاً واحداً حتى لو اختلفت الغزاة. ونرى في هذا المقطع، إن السماوي ينتقد الواقع الراهن من الاقتتال الداخلي، في العراق وما فيه من ظلم وانقلاب هائل في القيم والمفاهيم؛ ويوجه سهام غضبه لأولئك الذين خانوا مصالح الشعب العراقي ولاذوا بالاحتل، وهم كلَّ العرب الملتفين حول الغزاة بقيادة أميركا، وهم أولئك الذين مهدوا الطريق لهم، وبسطوها وروداً. ويعمد إلى خلق روح المقاومة في النفوس، وذلك بدعوته إلى الصمود أمام العدو، والتمسك بأبناء الشعب ورفض الخضوع والاستسلام؛ وذلك يتطلب التضحية والفداء لطرده جيوش "أبرهة العصر" من الوطن. وهذا ما يؤكد أن الشاعر بهذا الاستحضار، إنما سعى إلى الإثارة، والتهكم، والسخرية وتوجيه النقد لواقع العراقي الراهن من خلال صورة الوطن الضائع الذي تغيرت معالمه، وانقلبت صورته إلى صورة ذليلة، وغدا مهاناً يباع بأبخس الأثمان.

كذلك قوله:

ما مات "كامل" (٣) / "كامل" اختصرَ الطريقَ إلى السَّماءِ / من كَوّةِ في رأسِهِ الضوئيِّ / والجسدِ المَخْصَبِ بالدماءِ /
قد كان يعلمُ / أنَّ "هولاكو" الجديد / أتى / ليحرثَ حقلاً دجلةَ بالقنابلِ / ويدكُّ أعشاشَ الحمامِ / وأنَّ يُطْبِلَ الليلَ
/ في وطن الأرامِلِ / طَمَعاً بِتَبِيرِ الرافدينِ / ونقمةً من "سبي بابل" (٤) / لكنَّ "كامل" كان كاملٌ / فأبى الوقوفَ على
رصيفِ الإنتظارِ / أبى التخاذلُ / فاختارَ "كامل" أن يُقاتِلَ. (السماوي، ٢٠١٠: ١٢ - ١٣).

عكس السماوي في شعره بعداً مقاوماً، كشف عنه صور المعاناة التي يجيهاها الشعب العراقي نتيجة سيطرة "حزب البعث" على العراق، وبعده الاحتلال الأمريكي على أرضه. وهو من خلال استحضار صورة الشهيد "كامل شياح" يتذكر طاغية البلد (صدام)، وما عمله بالعراق من ظلم وقهر واستبداد، وأن هذا الظالم من أهل هذا الوطن، فـ"كامل" رفض التخاذل والاستسلام أمام العدو، فأختار أن يقاتل في سبيل وطنه. فالسماوي يصور مسلسل القتل والتدمير في العراق؛ سواء في ظل النظام الديكتاتوري، أو تحت رحي جيوش "هولاكو" الجديد. فليس التاريخ الماضي إلا معادلاً فنياً وموضوعياً لتاريخ الحاضر؛ فـ"هولاكو"، هو القناع الذي ألبسه لغزاة العصر الذين أهلكوا الشعوب والبلاد، وذلك من أجل لفت الأنظار وشد الانتباه، ودق ناقوس الخطر والتأكيد على أن ذلك البلاء لم يحدث فقط في الأيام الماضية، وأن الخطر والشر والظلم والمجحية، مازال قائماً، و أن الصفات الدموية والظلم والاستبداد والطغيان الذي مارسه "هولاكو" التتري، في بغداد، قد تجسد من جديد في طغاة ومجرمي هذا العصر من الأمريكا و من سار في ركبهم. وفي المقطع ذاته، يتذكر الشاعر قضية "السي البابلي" التي حدثت في زمن الملك "نبوخذ نصر"، وهو بالرجوع إلى التاريخ وذكر قضية "سي البابلي" يصوغ الفكرة معتمداً على التاريخ وحضارة هذا الشعب العريق؛ بأن اليهود ومن والا هم دمروا العراق، طمعاً بثروات أرض الرافدين، وانتقاماً من "سي البابلي"، فهو بهذا الرجوع إلى تاريخ مرة أخرى يحثهم على المقاومة والصمود ورفض التخاذل والاستسلام.

٤-٤-٦ - جنكيزخان

ويرمز بـ"جنكيزخان" إلى الطاغية المقبور (صدام) وجرائمه البشعة في العراق، وذلك قوله:
لا تُخافي.. يا أمي.. إنَّ همسةَ الإيمان / أقوى من قنابلهم / وستبقى كلمة "العدالة"، كافيةً لأن / تهر مفاصل
"جنكيزخان" / الواقف / على تلٍّ من جثث الأطفال / أمام العلم / الوطني المثقَّبِ برصاصِ الخيانة! (السماوي ،
١٩٩٣ب: ٢٨).

إنَّ الشاعر قد استولى عليه هذا الجوّ الحزين الكئيب؛ في العراق تنزف دماء العراقيين الثائرين، الذين يتعرضون لأقسى ألوان التعذيب، من قبل سفاكين "حزب البعث"، فهم يطاردون ويقتلون، وذلك بسبب وقوفهم أمام استبدادهم ومن أجل حفاظ على حرية هذا الوطن. وقد تواصل السماوي مع الموروث التاريخي، وذلك بالإشارة إلى جرائم "جنكيزخان" المغولي في هذا البلد، وقتل الشيوخ والنساء والأطفال. ومن خلال هذا التواصل يصل الماضي في الحاضر، ويجعل الوضع الراهن في هذا البلد صورة متجددة من صور الماضي، ولكن مع الفرق المؤلم، بأن هذا الحاضر كان بيد طاغية وطنية (صدام)، والشاعر من خلال هذا التوظيف يدين الواقع، ويكشف جرائم الطبقة الحاكمة، لكنه يتجاوز هذا الألم ليؤكد الأمل بأن شعب العراق ينتصر على طاغيته بعد كل ما فعل. وهكذا يبرز صوت الشاعر يجي السماوي شاعراً مقاوماً للديكتاتورية مثلما هو مقاوم للإحتلال، والظلامين. أن هذا المونولوج الداخلي الكئيب يبرز أمنية الشاعر التي يرغب تحقيقها، حين يغدو مصدرراً للاستمداد النفسي في المواجهة، و طاقة فعالة للإصرار، والعزيمة، والأمل في التعبير عن الممكن.

٧-٤- الحجاج

لقد استدعى الشاعر صورة "الحجاج بن يوسف السقفي" ليقنع بواسطتها، صورة زعماء "حزب البعث" وديكتاتوريتهم من القمع والتسلط والتجبر، وذلك قوله:

فُلْ يا عراقى متى ستفطر - نائراً -
 ما غادرَ "الحجاجُ" أرضَكَ، إنما
 زرعَ "ابن يوسف" في العراقِ عشيرةً
 نُطِفَتْ مُدْنَسَةً ترى في رجليها
 أسنَدْتُ بالأضلاعِ خِيمةَ عَمِّي
 فَرَأَيْتُ قومي يشربون دموعهم
 بدمِ الطغاة؟ كفى بنا إمساكا
 عشرون "حجاجاً" بها، سفاكا
 غَسَلَتْ يَدَيْها من نزيفِ دِمَاكا
 بَجْدًا وفي عَثْرَاتِها أَفْلاكا
 وجعلتُ جرحَ رجولتي شُبَّاكا
 فمتى سَتَنْفُضُ يا عراقى أساكا؟!!

(السماوي، ١٩٩٣ الف: ١٠١)

قد وجد الشاعر في التراث الوسيلة الفعالة التي يمكن توظيفها لمواجهة الطغاة والمختلين، من خلال التذكير، والاستنهاض، وإذكاء الحمية، وإقامة صور المقارنة بين عدو الأمس، وعدو اليوم. أنّ "الحجاج" من الشخصيات التي تمثل الوجه المظلم من تاريخ الإسلام؛ حاول الشاعر من خلالها امتصاص ملامحها وإضفاء هذه الملامح على الطاغية "صدام" وحزب البعث، لكشف الواقع المرير عراق التي تعاني من الجوع والفقر والجور والدمار والانكسار. إن العراق تنن تحت سياط حزب البعث وتغرق في الجرح، والدمار، والمآسي؛ ولم يبق للإنسان العراقي بصيص من أمل إثر الجرائم التي تنتهك بحقه في العراق. فأراد الشاعر من خلال هذا الاستحضار، التعبير عن هذا الشر والجراح والدمار الذي ساد في العراق في هذه الفترة؛ فكان "الحجاج"، أصدق في نظر الشاعر في التعبير عن الواقع المعيش. وقد وفق السماوي في إعطاء صورة سلبية عن الديكتاتورية الصدامية، من خلال استحضار شخصية "الحجاج"، وقد جاءت هذه الصورة محملة بمشاعر الألم، لتحت المتلقي على تخليص هذا الوطن من ذلك الواقع المأساوي الذي يعاينه.

٨-٤- الإمام الحسين (عليه السلام)

لم يقصر السماوي على استدعاء الشخصيات الدينية والثورية الكبيرة في شعره، فيستدعي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام). وقد ظلت صورة الإمام الحسين (عليه السلام)، تربة خصبة لاستلهام الشعراء، حيث إن الإمام الحسين (عليه السلام)، رمزٌ للحرية، والشهادة، ورفض التخاذل والاستسلام. «تعدّ شخصية الإمام الحسين (ع) في الأدب المعاصر من أبرز أبطال الثورة والدعوات النبيلة، والذي لم يقدر لثورته أو لدعوته أن تصل إلى غايتها، فكان مصيره الهزيمة، ولم يكن سبب هذه الهزيمة نقصاً أو قصوراً في دعوته أو مبادئه، وإنما كان سببها أنّ دعوته كانت أكثر مثالية ونبلاً من أن تتلاءم مع واقع ابتدأ الفساد يسرى في أوصاله» (عشري زايد، ١٩٩٧: ١٢١). والسماوي عندما يجيب على هذا السؤال: «هل كتبت شيئاً من المراثي الحسينية وأين ألقيتها؟ يقول: إنني لم أكتب القصائد الحسينية بمعناها المنبري المباشر لكنني كتبت الكثير من القصائد التي تتضمن الفكر الحسيني، هذا لا يعني أن كتابتي

كانت طائفية، فالحسين عليه السلام لم يكن طائفيًا، كان مثلاً سماويًا / أرضياً للتسامح وكفى به رمزا لهذا التسامح الخرافي والأسطوري أنه بكى على أعدائه خوفاً عليهم من جهنم، رأيت مقتولا يبكي على مصير قاتله؟!» (الغريباوي، ٢٠١٠، ج ١: ٤٤٢-٤٤٣). فشخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، بصفاتها الجهادية ورمزيتها البطولية المنتصرة قد أغنت تجربة الشاعر، يستدعي السماوي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، وذلك قوله:

حاشاكُ تنثرُ للغزاةِ وُرُوداً
فَلَقَدْ خُلِّفْتَ كما النخيلِ عنيدا
لا زال فيكُ من (الحسينِ) بَقِيَّةٌ
تأبى الخسوعَ وإنْ تُبَاخَ وريدا

(السماوي، ٢٠٠٥: ١٢-١٣)

يستدعي الشاعر شخصية ذات رمزية بطولية التي قادت البشرية على طريق الحرية و العدل، ولها أثرها في تاريخ الإسلامي، والمثل الحقيقي لكل دعوة نبيلة التي انطلقت واثرت على واقع الظالم، وهي شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)، والفكرة الرئيسية لهذا الاستدعاء تقوم على حث الشعب على الجهاد، والبطولة، والشجاعة، ورفض التخاذل أمام العدو. فهذا الاستدعاء بدوره يسهم في إثراء دلالات النص وتأثير في المتلقي وتعميق الفضاء الدلالي للقصيدة.

أيضاً قوله:

طفلٌ بلا ساقينِ / وطفلةٌ مشطورةٌ نصفينِ / وطاعنٌ دونَ يدٍ / وامرأةٌ مقطوعة النهدينِ / وكوَّةٌ في قُبَّةِ "الحسينِ" / جميعها : / حصادٌ طلقتينِ من دَبَابَةٍ / مرَّتْ ب "كربلاء" / تحيَّةٌ ليوم "عاشوراء" (نفس المصدر: ١٢٥).

إنَّ السماوي لم يستطع غَضَّ النظر عن الواقع المأساوي الذي يمر بالعراق تحت ظل الإحتلال الأمريكي من الشراسة والعدوان. كلُّ هذا دفع الشاعر إلى التراجع إلى حادثة كربلاء؛ بوصفها نموذجاً مشرفاً للنصر؛ والعزة، والتضحية. مستلهماً العظمة، والمكانة الرفيعة التي احتلتها شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) في ذاكرة الأمة، واستلهام الأثر المرجو الذي يمكن أن تثيره حينما تستدعي بكلِّ هذه المقومات في نفس المتلقي. وجعلها وسيلة فاعلة للحض والاستنهاض، والتحريض، وإبراز دلالتها المباشرة؛ هادفاً بذلك إلى إثارة القارئ، وتذكيره، ودفعه لتجاوز راهنه المتردي؛ فهو بهذا التواصل مع الواقعة التراثية يبحث عن المثل الأعلى الذي غاب في ظلام الحاضر. ويصور لنا صورة الإنسان العراقي بالمعاناة والاضطهاد، وصورة الإحتلال الأمريكي في طغيانه، وشراسته، وقتله، وسفكه الدماء، و تدميره العراق.

٩-٤- الإمام علي (عليه السلام)

ويعمد السماوي إلى توظيف الشخصيات التراثية، لتكون تعبيراً عن مواقف يريدتها، أو ليحاكم العصر ونقائصه من خلالها، وهو في ذلك يختار الشخصيات التي تتلاءم مضمون تجربته، ومن ذلك شخصية "الإمام علي (ع)" وقوله:
أعوذُ باللَّهِ من الصلاةِ خلفَ حليَّةٍ / تَمَجَّدُ الغُرَّاءُ / ومن رصيفٍ ينبذُ الحفَّاءُ / أعوذُ باللَّهِ من السَّاسَةِ ينسجون للغرَّاءُ / ثوبَ الشعاراتِ التي تُبايغُ الطُّغَاءُ / أعوذُ باللَّهِ من الأئمَّةِ الثُّجَّازِ / الشَّاكرينِ نِعْمَةَ الدُّولارِ / في الليلِ ييكونُ (عَلِيًّا) / ويُبَايعونَ قاتليه في النهارِ. (نفس المصدر: ١٥١-١٥٢).

إنه شاعر ثائر على كل ألوان الفساد والانحراف والخزي والإذلال؛ فأراد التعبير عن العار الواقع على الوطن من جراء سيطرة حزب البعث على العراق وبعده الإحتلال الأمريكي وتبيين المشهد العراقي الراهن من الفجائع والذلل والنفاق. فمن وجهة نظر السماوي أن الحالة السياسية الراهن، هي نفس تلك الحالة السياسية التي كانت في عهد "الإمام علي (ع)" من المكر والخديعة والنفاق والتلبس بلباس الدين. وفي المقطع نفسه يستعير تعبيراً قرآنياً يقلب دلالته الأصلية ليبدل على السلوك المخزي لعملاء الإحتلال والمنافقين. فالاقتباس - هنا - لم يعتمد التضمين المباشر، وإنما اعتمد في تضمينه على نوع من التمثيل الخفي للتراكيب والمفردات القرآنية، بشكل يثير في نفس المتلقي قدرة إيجابية خاصة. إذن، الاقتباس في هذا المقطع يقوم على بعض الإيماءات الدلالية، التي تشير إلى النص القرآني إشارات طفيفة؛ وظلال الدلالة تأخذ ملامحها العميقة ورموزها من آيات سورة الفلق، (الآية: ١-٥): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. والمقصود في الآية من شر جميع المخلوقات: جهنم، وإبليس وذريته. ونلاحظ؛ أن السماوي ضمن معنى الآيات القرآنية، تضميناً إشارياً، وفي ذلك إضاءة للنص الشعري، ليعطي دلالة أبعد وأعمق ولتكون لها ظلال من المعاني شبيهة بالمعاني القرآنية. المعنى في الآيات القرآنية، أعوذ من شر جميع المخلوقات، جهنم وإبليس وذريته، أما في نص السماوي، فالمعنى ينحرف إلى أعوذ من شرّ صاحب لحية تمجد الغزاة، السياسيين، واللصوص، والإرهابيين، والمنافقين، والغزاة، والمحتلين... إلخ. إن ما يريد السماوي في هذا الاستدعاء هو الشكوى، حيث إن الشعب لازال ذليل ويعاني التخاذل والانكسار.

١٠ - ٤ - الرشيد

شعور التباهي والفخر بالماضي الذي أومض في نفسه من خلال ما تستند إليه أمته من تاريخ، وما حققته من أمجاد، أدى إلى رجوع الشاعر إلى الماضي الذي فقدته في هذا الواقع المتردي، فيستدعي شخصية "الرشيد" ومن ذلك قوله:

هل هذه بغداد؟ كنتُ عَرَفْتُهَا	تأبي مهاذةً الدّخيل العاقِ
تأبي مُساوِمَةً على شرفِ الهوى	فَتَذوُدْ دُونَ شِدَاةٍ بِالْأُزْمَاقِ
هل هذه بغداد؟ تَأْكُلُ تُدَيِّهَا	فإذا بها وخوؤها بوفاق!
هذا عراقك يا (رشيد) كبا به	جَوْرٌ وعدوانٌ وفأسٌ شِقَاقِ

(نفس المصدر: ١٦٥ - ١٦٦)

قد اهتم السماوي بإبراز صورة الماضي بإزاء الحاضر، من خلال مخاطبة "الرشيد" والشكوى إليه، ومقايضة زمانه بزماننا، واستحضاره شاهداً على هذا الزمان المتخاذل. فاندفع في تساؤل مرير كيف ضاع بغداد؟ وضاع المجد؟ وضاع التاريخ. أين العراق وقد تهدمت بغداده و مدنه وحرثت قنابل بنتاغون بساتينه؛ إن هذا السؤال المرير: "هل هذه بغداد؟" هو الباعث وراء هذا الخطاب المعاتب للأمة، وهو الدافع إلى تصوير الماضي الجميل في مقابل الحاضر المتردي، وتشخيص الداء الذي أفضى إلى هذا الحال. ترتبط بغداد في الذاكرة العربية عامة والعراقية خاصة، بعدد

من الدلالات والإيحاءات المشرقة، فهي مدينة تاريخية ذات التراث الأصيل، وقد نعمت بالأمن والسلام والرخاء في عهد "الرشيد"، ولكنها فقدت تلك الاستقرار والأمن، نتيجة سيطرة الاحتلال الأمريكي. فتبقى "بغداد" مثاراً للتساؤل أمام القارئ، ويثير الجدل حول ذلك الواقع، فالسماوي يحاول نقل الواقع الراهن في ضوء التواصل التاريخي. كذلك قوله:

خسبيَّ الغزاةُ.. فما العراقُ بعاقِرٍ
مَرَّ الغزاةُ به فحَصَّبَهُمْ دماً
عَقَمَ الزمانُ وما يزال ولُوداً
وأدَّلَ راياتٍ لهم وحشوداً
وغدأً سينحبُّ للرشيدِ حفيداً
بالأمس زانَ فَمَ العصور (رشيدة)

(نفس المصدر: ١٥-١٦)

يستدعي الشاعر شخصية "الرشيد"، التي ارتبطت في الذاكرة التاريخية ببغداد، ورحائها وعزها. فيستدعيها ليصور من خلالها عراق الحاضر التي تعاني من الجوع، والفقر، والجور، والدمار، بغية إثراء دلالات النص، وإدانة الوضع الراهن الذي يعيشه الشعب العراقي من التفاسد والتخاذل، وبهدف التأكيد على التاريخ وحضارة الشعب العراقي في الماضي، ورفضه الواقع المؤلم الراهن وما يضم هذا الواقع من المآسي والانكسارات والآلام التي يعاني منها الشعب العراقي في ظل الاحتلال. مندفعاً إلى الحُض، والدعوة إلى إعادة الزمن النبيل بكل ما يمثله في نفسه من إيحاءات جميلة مشرقة. وهي كلها عبارات تدل على ترقب الغد الذي تلوح فيه إشاعات الأمل والانبعث إلى الحياة، ليؤكد أن العراق مازالت تحيا على الرغم مما فعل بها المحتلون من الدمار و الجراح والآلام.

١١-٤- عمار ياسر

يتفنن شاعرنا في تصوير المعاناة وجراح الشعب العراقي، فيتخذ من صورة "عمار ياسر" رمز المعاناة والتضحية والصمود، ومن خلال هذا الاستحضار هو يسعى ليكون مثله في التحدي والعزيمة رغم الجراح والآلام، ويصر على تحقيق أهدافه، ومن ذلك قوله:

يا "آل ياسر" والصمودُ على القذى
ما مات "عمار بن ياسر" .. إنما
طَبَّعَ لمن عرفوا الصِّراطَ وكَبَّرُوا
مات الذي بدم ابن ياسر يَأْمُرُ!

(السماوي، ١٩٩٣ الف: ٣٤)

إنَّ العراق في ظل قيام نظام البعث وهيمته على العراق كياناً وإنساناً، تغرق في الجراح والدمار والجوع. كما يقول السماوي: «فالعراق يحول في ظل نظام "صدام حسين" إلى تابوت على هيئة وطن! لا أعتقد أن التاريخ يُشهد سادياً مثله، كان يتلذذ برؤية الدم، ولعله الرئيس الوحيد في العالم الذي كان يأمر جلاديه بتصوير ضحاياه وهم يُعذبون وتقطع أوصالهم» (الغزبوي، ٢٠١٠، ج١: ٤٣٨). لكن رغم شدة المعاناة، لم يفقد السماوي الأمل في التخلص من هذه المعاناة ومن ظلم الديكتاتورية الصدامية. ويحاول أن يخرج من واقعه المير، وهو واقع لا يمكن الخلاص منه إلا بمزيد من التضحية والفداء. فيستعين الشاعر بشخصية "عمار ياسر" ليعطي بعداً دلاليّاً على الوضع

الراهن والواقع المرير في العراق. فالشاعر يحدد طريق الخلاص والتحرير بمواجهة الظلم والاستبداد. والمقاومة والتضحية هي التي توحد صفوف الشعب وتجعله يستعصي على الانكسار أو يتنازل عن حقوقه الشرعية.

١٢ - ٤ - قيس بن ملح

ويستلهم الشاعر شخصية "قيس بن الملح" و "ليلي العامرية" للتعبير عن شدة حنينه ووجه لوطنه، وتشرده عنه. وذلك قوله:

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ حَظَّكَ فِي الْهَوَى	حَظُّ (ابنِ عَدْرَةَ) فِي هَيْامٍ (مَهَابَةٍ)
يَا صَابِرًا عَقْدَيْنِ إِلَّا بَضْعَةً	عَنْ خَبْرٍ تَنْوِرُ وَكَأْسِ فُرَاتٍ
لِيَلَاكَ فِي حُضْنِ الْغَرِيبِ يَثْبُدُهَا	لَسْرِيهِ حَبْلٌ مِنَ السُّرْفَاتِ
تَبْكِي وَتَسْتَبْكِي وَلَكِنْ لَا فَعَى	فَيَفْكَ أَسْرَ سَبِيئَةٍ مُدْمَاةٍ
يَا صَابِرًا عَقْدَيْنِ إِلَّا بَضْعَةً	(لَيْلَى) مُكَبَّلَةٌ بِقَيْدِ (عُزْرَةَ)
لِيَلَاكَ مَا خَانَتْ هَوَاكَ وَإِنَّمَا	(هُبْلُ الْجَدِيدِ) يَزِي (دُولَارَاتِ)
إِنَّ (الْمَرِيضَةَ) فِي الْعِرَاقِ عِرَاقَةٌ	أَمَّا الطَّيِّبُ فَيَبْضَعُ الشَّهَوَاتِ

(السماوي، ٢٠٠٥: ٧٤ - ٧٥)

إننا ندرك بوضوح عمق هيامه بوطنه، وصدق تعلقه به وفي ظل هذا التلازم العميق بين الوطن والشاعر شكل نصوصه الشعرية، وتوهجت شعلته وهو يؤدي لحن العاشق للوطن، إنه الحب والانتماء الذي يضرب بجذوره في أعماق هذه الأرض، حيث تتفجر من كيان السماوي هذه المعاني لتجسد أجمل معاني الانتماء والحب. فيبدأ المشهد التمثيلي بتوجه الأنظار نحو ابن عدرة (السماوي) و معشوقته ليلي (الوطن)؛ أما معشوقة السماوي في حضن الغريب، مكبلة بقيد الغزاة! وقد سلبها الاحتلال. فهو «عاد إلى وطنه بعد طول غياب وضمني واغتراب ليجد محبوبته - ليلاه، عراقه - بين أحضان الغريب! تماماً كحال ابن عدرة (قيس بن الملح العامري) الذي صبر على معاناة حبه لليلي وتشرده بعيداً عن القبيلة سنياً، حتى فوجيء في لحظة العودة أن ليلاه في حضن آخر غريب. هكذا بدت العراق بالنسبة للشاعر» (خفاجي، ٢٠١٠: ١٨١). فالشاعر يلخص علاقته بالوطن من خلال الحبيبة؛ فنستشف منها صدق الانتماء وحرارة العاطفة لأنّ الوطن في مفهوم السماوي عشق ومعاناة وتضحية وتشرده وقد تشرب نفسه كل تلك المعاني.

كذلك قوله:

للموحشات أكنث مغترباً	دامي الخطى أو كنت في بلدتي
للموت يجفوني فأثبُّه	أَمَلًا يَعْطُفُكَ يَوْمَ مُلْتَحَدِي!
أنا (قَيْسُكَ) المطرودُ خيمتهُ	بَيْنَ الْخِيَامِ يَتِيْمُهُ الْوَتْدُ!
يا حُرُنْ ماضي العمرِ يا أبتي	يا صَبْرُ باقي العمرِ يا وُلْدِي
رَفُقًا بِعُكَّازِي فَسَدَّ وَهْنَتْ	سَاقِي وَأَحْدَاقِي بِلَا مَدَدِ

(السماوي، ٢٠٠٥: ٤٥ - ٤٦)

تمثل هذه الأبيات حالة الهمّ، والحزن، والألم المكبوت الذي خالط قلب الشاعر، وهو همّ يريد الشاعر أن يخرج به من دائرة الإحساس إلى الشعر. نلاحظ أن الشاعر قد تقنّع بشخصية "قيس بن ملح" - مجنون ليلى - الذي من أجلها جاب الصحارى وشرّد وعاف الديار حتى ذهب عقله؛ فكما كان "قيس" مجنوناً ليلياً، هو مجنون العراق رغم بعده عنه؛ «يتصل حبّ الوطن منشوداً ومأمولاً بالشاعر يحيى السماوي إلى درجة الغداء والتضحية وتكران الذات وهو بحبّه اللآ مشروط واللآ محدود لمسقط روحه يسمو فوق جميع الاعتبارات والحسابات التي لا تتماشى مع منطق القلب والوجدان» (العوني، ٢٠١٠: ٢٤٥). ولا يخفى أن ليلى المحبوبة لدى الشاعر هي الوطن، الذي يهيم به كما هام المجنون بليلاه. تتحد علاقة الشاعر بالوطن ووصل الأمر بشاعرنا إلى حالة الوله والعشق الصوفي الذي تفنى فيه. وهذه العلاقة القائمة بين الشاعر ووطنه سبباً مباشراً في إضفاء الشعور بالمرارة. كما يقول نفسه: «لقد أحببتُ العراق إلى حدود الكراهية، فالحب قد يتحول إلى حقد حين يأخذ شكل الجنون، صدقي إنه أثنائي الذهبية ووردة الحلم، ومع ذلك، فالعراق هو أيضاً الخنجر المزروع في قلبي: أحشى أن أستخرجه فأموت أو أن أبقيه فأشقى!» (القرني، ٢٠٠٨: ٣٩ - ٤٠). وهي الحالة التي يسقطها السماوي على نفسه وعلى حبيبته - وطنه - بأسلوب حوارى عميق دال على شدة حنين الشاعر إلى بلده بعد أن سفكوا المحتلون دماءه. كذلك قوله:

أما العشيرُ فسيفُةُ معصوبُ	"ليلاه" في حِضنِ العُزّاقِ سبيئَةٌ
والنخلُ والنهْرُ الجريخُ نجيبُ	أجل .. البلادُ نجيةٌ يا صاحبي
جُلبتُ على فسَدِ فليسٍ تنوبُ	لكنَّ بعضَ "رؤوسنا" يا صاحبي
مُتأبِّدٌ ... وصباحنا مَعْصوبُ	غرسوا بنا سُلَّ الشقاقِ فليئنا

(السماوي، ٢٠٠٦: ٨٥ - ٨٦)

إنّ السماوي تغلغل في دمه ماء الفرات، ومع أنه ابتعد عن وطنه - ليلاه - مرغماً، وبرغم ما تعرض له من ويلات النفي والتشريد لكن؛ لم يغب صورة وطنه التي تبعث في نفسه الألم والحسرة، بل أنها تتسرب إلى روحه وتحتل قلبه. هنا يصور الشاعر الواقع المؤلم في العراق تصويراً توصيفياً دقيقاً؛ فحاء هذا المقطع انعكاساً باطنياً لجراح الذات وآلامها من الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق. هذه الأبيات تعبر عن الآلام التي أحقدت بالشاعر في الغربة التي أصبح الشاعر في حزن وأسى عميقين؛ هو يعاني ألم الغربة عن الأهل والوطن (ليلى) وألم المأساة التي يعيشها الشعب العراقي من القتل، والدمار، والنفاق.

١٣ - ٤ - جميل بثينة

من الشخصيات التاريخية الأخرى التي استدعاها السماوي في شعره ليدعم تجربته، هي شخصية "جميل بثينة" ليرمز إلى حبه اللامحدود واللآ مشروط لوطنه الجريخ، ومن ذلك قوله:

لقد كلّفني "جميل بن معمر" أن أفتح/ عينيّ بركتيني لشيء "بثينة" .. / وأن أذود عن بني عذرة بعفاف حيي .. / فدعي شعرك طليقاً.. إنه خيمتي.. وقد / أن لحارسك الأمين، أن يغفو قليلاً / كي يجلس ليحرس نوفذ الليل، حين يستحم / النعاس في عينيك ويستقيظ في مقلتيه الأرق! "المهيب الركن" الذي كان طاغوتاً أمام أمي / وأطفالي، صار أرنباً مذعوراً أمام، / جيوش التحالف حين رأى "المطرقة الجاهزة" توشك أن تطحن رأسه / المثقل بالأوبئة... (السماوي، ١٩٩٣: ٤٢-٤٣).

إنّ السماوي قد انصهر بوطنه انصهاراً تاماً وخصص شعره لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح. لأنه غادر وطنه العراق بعد أن خيم عليه الحزن والخراب، وتسلمت عليه قوى البغي والإذلال. وفي الغربة يقدم الشاعر أروع معاني الحب إلى الوطن، فالحب عنده موروث منذ القرون الأولى فهو عاشق بالوراثة، ولكن الحب الحقيقي عند شاعرنا الجريح لا يقتصر إلا على الوطن الجريح. وهو ينظر في واقع عراقي مرير يرسم فيه أبشع صور الجريمة، فيتذكر طاغية البلد وما عمله بالعراق من استبداد و ظلم وقهر، ومن خلال هذا التوظيف تتخلق لدى السماوي مشاهد حزينة ترتبط بواقع العراق البائس.

ومن شواهد هذا النمط في الاستدعاء، هي في قصيدة "أنا والعراق بثينة وجميل" وقوله:

أغفوا على جرح السنين مُكابراً	وَتَسْكِي نحو الصراطِ سبيلاً
وَأدْلِي عشقي.. فكيف أصدؤه؟	أنا والعراق: "بثينة" و"جميل"!
أزف الوداع.. فيا دموعَ رجولتي	لا تفضّحيني.. فالطريقُ طويل!

(السماوي، ١٩٩٣ الف: ٤٣)

إنّ السماوي حمل دفة الحب للعراق والثورة على الدمار والقتل والإرهاب وعبر عما بداخله أصدق التعبير. لأن شعره يصدر عن شاعرية طبيعية وفطرية أدبية؛ كما يؤكد السماوي «الشعر بالنسبة لي مندبل.. ودواء.. وعصا.. بهذا المندبل أمسح دموع قلبي.. وبهذا الدواء أقاوم الموت إكراماً للمحبة والحياة.. وبهذا العصا أنش عني ذئاب الوحشة في براري الغربة» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج١: ٣٨١-٣٨٢). تلفت نظرنا في هذا المقطع المستشهد به، نبرة الحزن والمأساة التي يعيشها الشاعر في هذا الموقع المؤلم الراهن من الدمار والجراح والتشريد، وتتحد علاقة الشاعر بالوطن ووصل الأمر بشاعرنا إلى حالة الوله والعشق الصوفي الذي تفنى فيه. إذن، لهذه الشخصيات التراثية من الدلات العميقة بإمكانها أن تضئ جانباً من جوانب رؤيته الشعرية، وتشيع بعدها التاريخية أجواءً من حالة الحب الخالد بين السماوي و وطنه الجريح وحالة الفراق المرير التي مُني كل منهما في حبه.

١٤ - ٤ - امرؤ القيس

ومن الشخصيات الأخرى التي وظفها السماوي شخصية "امرؤ القيس" وقد استدعاها السماوي لتدل على الشخصية المشردة الضائعة التي تتحمل آلام المحنة والتشريد. من ذلك قوله:

هي فرصةٌ فلتغنمها قبلما	أغفو ولم أكتب كتابَ وصاتي
لا تحسري عرشَ الجنونِ ورثته	عن مستباحٍ لاذ بالفلوات

والتائه "الضليل" باع بنشوة
أنا جنني وأنا جحيمي .. حرّبي
ملكاً.. وأنعاماً بناي زُعاة
وَجَعِي لتكشفي غرابة ذاتي

(السماوي، ٢٠٠٨: ١٨٣ - ١٨٤)

يتّخذ السماوي شخصية "الملك الضليل" ويرى فيها ما يتشابه مع تجربته الذاتية، فكلاهما قد عانى من النفي والتشرد والقهر؛ وقد ارتبط استدعاء هذه الشخصية التراثية باستدعاء شخصية أخرى وهي "قيس بن الملوح" - مستباح لاذ بالفلوات - لدعم تجربته وتجسيدها بشكل تام، فالشاعر يشير إلى صدمته القوية الناتجة عن المعاناة وتشرد أبناء الشعب العراقي في ظل هذا الواقع المتردي إثر احتلال الأمريكان للعراق؛ فقد حرر الاحتلال العراق من ظلم الديكتاتورية الصدامية، ليحتلها احتلالاً أشد قسوة ومأساة من النظام السابق؛ وهم كالمستصرخ من الرضاء بالنار. ومن خلال هذا تتخلق لدى السماوي مشاهد حزينة ترتبط بواقع العراق البائس، و ينطلق إلى الكشف عن خبايا شديدة الأسى لا بد من كشفها والوقوف عليها. من الواضح في هذه الأبيات أن هذه التجربة الوجدانية أصيلة متجذرة في نفس الشاعر ووجدانه، وليست أصداء عابرة لتجربة موقوتة.

١٥ - ٤ - توظيف الشخصيات التاريخية الأخرى

إنّ السماوي يرجع إلى التاريخ ويستغل طاقاته الحية ويوظفها في نصه الشعري؛ ليجسد واقعه الذي يعيشه ويعاني همومه وآلامه وآماله، استعان الشاعر بالشخصيات التاريخية متخذاً منها رمزاً موحياً، ووسيلة لتصوير الواقع العراقي المرير. ومن ذلك قوله:

إنّ ززانة أغفو فيها أمناً / لأوسع عندي / من وطن / لا أمان فيه! / كيف لي أن أميّزَ / بين سيف "عروة بن الورد" وسيف "هولاكو" / بين "عمامة الحسن البصري"^(٥) وقلنسوة "تيمورلنك" / بين "الحُرّ الرياحي" و"زياد بن أبيه" / بين "الحلاج" و"الحجاج" / بين لحية مُخضّبة بالديناميت / وأخرى مُحتاة بدموع النسك / بين البرتقالة والقنبلة / بين "العربي" و"العبري" / بين الخيط الأبيض والأسود: / إذا كان الدخانُ / يمتدُّ من نافذة الصباح / حتى ستارة الليل / والقائمون على أمره / قد استبدلوا "صورة الكرسي" / بـ "آية الكرسي" / و"الحجر الأبيض" بـ "الحجر الأسود" ؟؟ / كيف أميّزُ / بين اللصّ والناطور / إذا كنتُ مفقوءَ العينين / في وطنٍ / أضحى مرعىً / للملثمين ؟ (السماوي، ٢٠٠٩: ٣٨ - ٤٠).

عاش العراق في القرن الحاضر، في وضع سياسي قلق تظهر آثاره في حياة شعبها بكافة نواحيها؛ فقد أخذ السياسة، والأحداث السياسية مكانة مهمة من حياة العراق بحيث يمكن القول إنّها تمثل الوجه البارز للنشاط الفكري والثقافي والأدبي في العراق. وبالرغم من أن السماوي عانى البعد عن الوطن طويلاً، بعد أن خيم عليه الحزن والخراب، في ظل سيطرة ديكتاتورية "حزب البعث" ظل على اتصال مستمر مع وطنه، ويعبر عن وطنه بصورة الراهنة بمآسيه ومظالمه. تلفت نظرنا؛ في هذا المقطع المستشهد به، نبرة الحزن والمأساة التي يعيشها العراق في ظل الإحتلال الأمريكي من الاقتتال الداخلي. وجاءت الشخصيات التاريخية السلبية - هولاكو، زياد بن أبيه، الحلاج، تيمورلنك - رموزاً للدمار والخراب والسقوط، والتردي، والتأمر. واختياره لهذه الشخصيات لم يأت عبثاً، فجميعهم يوجع قلبه

وبمزقه، وجاءت الشخصيات التاريخية الإيجابية - حسن البصري، حر الرياحي والحلاج- رمزاً للتعالى والحرية والإصلاح، إذن إنَّ الشاعر لم يستطع غضَّ النظر عن الواقع المأساوي يمر بالوطن الذي أتكله الطغاة والنفاق والارهاب. وتوظيف هذه الشخصيات بهذه الكثافة نعت من مرارة الواقع المتردي السياسي الذي يعيشها الشعب العراقي من القمع الداخلي والانكسار الخارجي. وهذه الوضعية التي يصفها الشاعر تجسد الأزمة الحقيقية التي مرت بها العراق وتصارع القوى والمنافقين والإرهابيين و... إلخ، فيها من أجل الظفر بغاياهم وأهدافهم في السلطة.

نتائج البحث:

- يتضح مما سبق أنَّ السماوي استطاع أن يوظف هذه الشخصيات من خلال هذه الكثافة لإثراء نصه بما ينسجم مع تطلعات القارئ، فهي تبعث في النفس الحزن والألم على الماضي الذي يضم شعبه وتاريخه إذ شاهد ما حل بالعراق وما أعقب ذلك من الدمار والمآسي.
- يستهدف السماوي ما يحمله هذا التوظيف من أثر دلالي على الحاضر بتسليطها الضوء على طبيعة الحكام والخونة، وتبيين مرارة الواقع المتردي السياسي المرير في العالم العربي.
- السماوي بالرجوع إلى التاريخ يستعير ملامح الشخصيات السلبية، - هولوكو، تيمور لنك، الحجاج و...- لتعميق معنى الذل والهوان، وتعبير عن الدهشة؛ مما يحدث في الواقع الراهن العراق من التخاذل والخنوع والخيانة، وحمية العدو، ويحث الشاعر الشعب لاستئصال جذور هذه الخونة من الوطن.
- قد تواصل السماوي مع الموروث، ومن خلال هذا التواصل يصل الماضي في الحاضر، ويجعل الوضع الراهن في العراق، صورة متحددة من صور الماضي.
- السماوي يصور مسلسل القتل والتدمير في العراق؛ سواء في ظل النظام الديكتاتوري، أو تحت رحي جيوش "هولوكو" الجديد. فليس التاريخ الماضي إلا معادلاً فنياً وموضوعياً لتاريخ الحاضر.
- استدعى السماوي الشخصيات التاريخية الإسلامية كشخصية الإمام علي(ع)، الإمام الحسين (ع) وعمار ياسر...، لبعث روح المقاومة وعدم الاستسلام، وحث الشعب على الجهاد ومواجهة العدو الغاشم.
- يوظف الشاعر شخصية "قيس بن ملوح، جميل بثينة، امرؤ القيس"، ليرمز إلى حبه اللامحدود واللا مشروط لوطنه الجريح، وما عانى من النفي والتشرد والقهر.
- وكانت الفكرة الرئيسية لتوظيف هذه الشخصيات، تقوم على رسم الشاعر صورة معبرة عن مأساة الشعب العراقي وتبعاتها، لما حل بهم من القتل، والجراح، والآلام؛ وهو بذلك يريد تصوير جرائم الديكتاتورية الصدامية والاحتلال الأمريكي وعملائه وأثرها المدمر على حياة الشعب العراقي بكافة نواحيها. وهي بدورها تؤكد موقف الشاعر مما يجري في بلده، وتكشف موقفه وما يختزنه من أسى وألم.

- ١- عندما قُتل أحدُ فُواد الروم، ثلاثة أطفال لأمرأة مسلمة في عمورية، فصاحت قائلة وامعتصماه! يقال ان المعتصم سمع الصرخة في المنام فاستيقظ ثم طلب أن يحضروا المرأة في بغداد، فعزم المعتصم على نصرتها فجهز جيشاً جراراً أوله في عمورية وآخره في بغداد، حتى احتل عمورية فقبض على القائد الذي قتل أبناءها. (للمزيد من التفاصيل، أنظر: تاريخ الطبري، ج/٩: ٦٤ - ٧١).
- ٢- عيبر قاسم حمزة: صبية عراقية من مدينة المحمودية، كانت في طريقها إلى بيتها حين شاهدتها رهط من الجنود الأمريكيين، فتبعوها حتى دخلت بيتها، فاقتحموها، قتلوا أباهما وأمها وبقية أفراد العائلة، ثم تناوبوا على اغتصابها قبل قتلها وإضرام النار في البيت لإخفاء جريمتهم.
- ٣- كامل شياح: هو أحد شهداء الانتفاضة الشعبية العراقية زمن سيطرة "حزب البعث".
- ٤- السبي البابلي: إن "نبوخذ نصر" ملك بابل، أخذ ثورة قام بها اليهود، وعندما أعادو الكرة، لم يخذ ثورتهم وحسب، بل ساق ملكهم وكبار المملكة أسرى إلى بابل، وهذا هو الحادث الذي يعرف في التاريخ اليهودية بـ"السبي البابلي".
- ٥- الحسن البصري: هو الإمام أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، المولود في المدينة المنورة سنة ٢١هـ. في خلافة عمر، أقبل على حفظ القرآن الكريم، وقد عُرف بالتقوى والعبادة والورع وكثرة البكاء، واشترك في الفتوحات الإسلامية، وحياته حافلة بالعلم والزهد والورع والخشية والجهاد، والوقوف في وجه الطغاة والجبابرة.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. بدوي، محمد جاهين. (٢٠١٠). *العشق والاغتراب في شعر يحيى السماوي "قليلك لا كثيرهن نموذجاً"*، ط١، دمشق: دار الينابيع.
٣. حمدان، عبد الرحيم. (٢٠٠٧). «استدعاء الشخصيات الوطنية والجهادية والتراثية في ديوان "حديث النفس" للشاعر الشهيد عبد العزيز الرنتيسي»؛ *مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)*، العدد الأول، المجلد الخامس عشر.
٤. خفاجي، عبد الجواد. (٢٠١٠). «قراءة في قصيدة يحيى السماوي؛ يا صابراً عقدين إلا بضعة» ضمن كتاب، "تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي" لماجد الغرباوي، ج٢، ط١، دمشق: دار الينابيع.
٥. السماوي، يحيى. (٢٠٠٥). *نقوش على جذع نخلة*، ط١، أستراليا: منشورات مجلة كلمات.
٦. ----- . (٢٠٠٨). *البكاء على كتف الوطن*، ط١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
٧. ----- . (١٩٩٣ الف). *قلبي على وطني*، ط١، جدة: عبد المقصود محمد سعيد خوجة.
٨. ----- . (١٩٩٣ ب). *جرح باتساع الوطن*، ط١، جدة: عبد المقصود محمد سعيد خوجة.
٩. ----- . (٢٠٠٩). *شاهدة قبر من رخام الكلمات*، ط١، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
١٠. ----- . (٢٠١٠). *لماذا تأخرت دهرًا*، ط١، دمشق: دار الينابيع.
١١. ----- . (٢٠٠٦). *قليلك لا كثيرهن*، استراليا: منشورات مجلة كلمات.

١٢. شرتح، عصام. (٢٠١١ الف). آفاق الشعرية دراسة في شعر يحيى السماوي، ط١، دمشق: دار الينابيع.
١٣. ----- . (٢٠١١ ب). موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيى السماوي، ط١، دمشق: دار الينابيع.
١٤. الطبري، أبو جرير. (د. ت). تاريخ الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، بيروت: دار الكتب.
١٥. عبد النور، جبور. (١٩٧٩). المعجم الأدبي، ط١، بيروت: دار العلم للملايين.
١٦. عشري زايد، علي. (١٩٩٧). إستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، مصر: دار الفكر العربي.
١٧. ----- . (٢٠٠٣). عن بناء القصيدة العربية، ط٥، الرياض: مكتبة الرشد.
١٨. العوني، محسن. (٢٠١٠). «الوطن منشوداً وموجوداً في شعر يحيى السماوي»، ضمن كتاب، "تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي" لمجد الغرناوي، ج٢، ط١، دمشق: دار الينابيع.
١٩. الغرناوي، ماجد . (٢٠١٠) . تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي، المجلدين، دمشق: دار الينابيع.
٢٠. قباني، نزار. (١٩٨١) . ما هو الشعر، ط١، بيروت: منشورات نزار قباني.
٢١. القرني، فاطمة. (٢٠٠٨). الشعر العراقي في المنفى "السماوي نموذجاً"، ط١، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.
٢٢. هارون، عبد السلام. (١٩٨٥). تهذيب سيرة ابن هشام، ط١٤، كويت: دار البحوث العلمية.

فصلنامه لسان مبین (پژوهش ادب عربی)
(علمی - پژوهشی)
سال هفتم، دوره جدید، شماره بیست سوم، بهار ۱۳۹۵

به کارگیری میراث تاریخی در شعر یحیی سماوی*

یحیی معروف، استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه
بهنام باقری، دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه

چکیده

به کارگیری «شخصیت‌های تاریخی» یکی از ویژگی‌های فنی تأثیر گذار در گفتمان شعری معاصر است. این پژوهش بر آن است به بررسی کاربرد «شخصیت‌های تاریخی» در شعر یحیی سماوی بپردازد؛ تا ویژگی‌ها و دلالت‌ها و چگونگی تعامل شاعر با آن مشخص شود. یافته‌های این پژوهش نشان می‌دهد شاعر تلاش کرده نقش ودلالتی را که این شخصیت‌ها در گذشته داشته‌اند برای بیان و تصویر وضعیت حاضر و وضع سیاسی و حوادث دهشتناکی که در عراق می‌گذرد به کار گیرد. کاربرد این شخصیت‌ها در شعر او؛ دیدگاه شاعر، درد و رنج و آوارگی او از وطن، و آنچه که در عراق از جرایم، خونریزی‌ها، و حوادث دهشتناک می‌گذرد را نشان می‌دهد. «سماوی» با به کارگیری این شخصیت‌ها، تصویری گویا از مصیبت‌ها، درد و رنج خود و مردم عراق در زمان سلطه «حزب بعث»، و بعد از آن اشغال‌گیری آمریکایی‌ها و مصیبت‌های ناشی از آن، و جرائم دهشتناک آنان در عراق، ارائه داده است. شاعر همچنین ضمن تعبیر از احساس خود و بیان این مصیبت‌ها، مردم عراق را به مبارزه طلبی و پایداری در برابر آنان بر می‌انگیزد. و به نظر می‌رسد؛ شاعر با بکارگیری این شخصیت‌ها، احساس خود و جرایم، خونریزی‌ها، مصیبت‌ها، و غم و غربت و آوارگی خود و مردم عراق، را به نحو احسن نشان داده است.

کلمات کلیدی: یحیی سماوی، میراث تاریخی، اشغالگری، عراق.